المبحث السادس عشر

نفع الناس بدفع الظلم عنهم

لقد حرَّم الله تعالى الظلم مطلقًا ، وحرَّمه على نفسه تعالى ،و أعلن هذا في وحيه إلى رسوله ﷺ ليقتدى الناس بربهم الذي نزه نفسه وحرَّم الظلم عليها ، فقال كما يروي النبي ﷺ عن رب العزة - جل وعلا - « **يا عبادي إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظَّالموا . . .** »(١) .

والظلم له قهر عجيب يعتصر القلب اعتصاراً،وربما يُخرج الإنسان - المظلوم - عن شعوره ويُفقده صوابه ، فتخرج الصيحات المقهورة ، والآهات المكبوتة ، في فضاء الكون لعلها تجد من يتجاوب معها فيدفعها أو يخففها .

ولقد أخبر النبي ﷺ أن العليم القدير هو أول من يتجاوب معها فيدفعها أو يخففها بحكمته ورحمته ، فقال في أكثر من سياق :

❁ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن: « **اتقِ دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب** »(٢) .

❁ وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « **اتقوا دعوة المظلوم ، فإنها تصعد إلى السماء كأنها شرارة** »(٣) .

❁ وعن خزيمة بن ثابت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « **اتقوا دعوة المظلوم فإنها تُحمَل على الغمام ، يقول الله : وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين** »(٤) .

---

(١) مسلم في البر والصلة برقم (٥٥) .

(٢) البخاري برقم (١٤٩٦) ، ومسلم برقم (٢٩) ك الإيمان .

(٣) صحيح الترغيب والترهيب (٢٢٢٨) .

(٤) المرجع السابق برقم (٢٢٣٠) وأشار بأنه حسن لغيره .

❁ وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **دعوة المظلوم ، وإن كان كافراً ليس دونها حجاب** » .

❁ وفي رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه :« **دعوة المظلوم مستجابة وإن كان فاجراً ، ففجوره على نفسه** » (١) .

❁ أفرأيت كيف يتجاوب الحق ـ تعالى ـ مع دعوات المظلومين وصيحات المقهورين !! .

إن هذا العلم بتجاوب الله ـ تعالى ـ مع دعوات المظلومين ينبغي أن يُثمر على الأقل ثلاث ثمرات عظيمات :

الأولى : الرعب والخوف في قلوب الظلمة ، فهم لا يقدرون على حرب الله عز وجل ، الذي ينصر المظلومين .

الثانية : في قلوب المؤمنين الذين يكرهون الظلم، أن يتجاوبوا مع صحيات المقهورين لدفعها وتخفيفها عنهم ، لعلهم يكونون أسباباً اختارها ليشرفها ويمنحها أجر وشرف طاعته سبحانه والعمل معه .

الثالثة : في قلوب المظلومين ، سكينة وطمأنينة وثقة بأن النصر في جانبهم ولو بعد حين .

وبعد هذه الثمرات لابد أن يعلم الناس أن من استطاع أن ينفع الناس بدفع الظلم عنهم ولم يفعل ، فإن صوراً من العتاب والعقاب تنتظره ، ففي الحديث :

❁ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « **أُمِرَ بعبدٍ من عباد الله يُضْرَب في قبره مائة جلدة ، فلم يزل يسألُ ويدعو حتى صارت جلدة واحدة ، فامتلأ قبره عليه ناراً فلما ارتفع وأفاق قال : على ما جلدتموني ؟ ، قال : إنك صليت صلاة بغير طهور ، ومررت على مظلوم فلم تنصره** » (٢) .

---

(١) المرجع السابق برقم (٢٢٢٩) وأشار بأنه حسن لغيره .

(٢) صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٢٣٤) والسلسلة الصحيحة برقم (٢٧٧٤) .

obeikandi.com

❁ وعن جابر بن عبد الله وأبي طلحة بن سهل الأنصاريين رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « **ما من امرئ يخذُل امرأً مسلمًا عند موطن تنتهك فيه حرمته ويُنتقصُ فيه عرضه ، إلا خذله الله - عز وجل - في موطن يحب فيه نصرته ، وما من امرئ ينصر امرأً مسلمًا في موطن يُنتقصُ فيه من عرضه ويُنتهك فيه من حرمته إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته** » (١) .

رُحماك يا الله رحماك ، عذاب في القبر بسبب ماذا ؟ ، مرَّ على مظلوم فلم ينصره !، خذلان وهزيمة في أشد المواقف، حاجة إلى التوفيق والنصر، ما سببه ؟، خذل مسلمًا في موطن كان يقدر أن ينصره فيه !! .

فالجزاء من جنس العمل ، فكما تُعين الناس بدفع الظلم عنهم ، تُعان بمن يدفعه عنك .

الأمة التي لا تنصر المظلوم لا تستحق النصر !! :

إن عاقبة ترك الناس نُصرة المظلوم ودفع الظلم عنه ليست فردية ، وإنما تَعُمّ المجتمع كله ، ويظهر أثر عاقبة هذا الأمر في تلاحق الهزائم لتلك الأمة التي لا يُنتصر للضعفاء فيها من ظالميهم .

جاء في الحديث من طرق متعددة :

❁ عن معاوية رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا تقدَّسُ أُمَّة لا يُقضى فيها بالحق ، ولا يأخذُ الضعيف حقه من القويّ غير مُتَعتَع** » (٢) .

❁ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا قُدِّست أُمَّة لا يُعطى الضعيف فيها حقه غير مُتعتَع** » (٣) .

---

(١) مسند الإمام أحمد برقم (١٦٣٦٨) .
(٢) صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢١٩١) وأشار بأنه صحيح لغيره .
(٣) صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٨١٨).

• وعن خولة بنت قيس - زوج حمزة بن عبد المطلب - رضي الله عنهما - قالت : قال رسول الله ﷺ : « **ما قدَّس الله أُمَّة لا يأخذ ضعيفها الحق من قويها ، غير مُتَعتَع** »(١) .

• ورواه الإمام أحمد من طريق عائشة ، والطبراني من طريق عبد الله بن مسعود وغيرهم - رضي الله عنهم - وقد تعمّدت إيراد أكثر من طريق للحديث ليرى القارئ الكريم من خلال هذا مدى شيوع الوعي في ذلك المجتمع الطاهر ومحاذرته من أن يظهر فيهم هذا الأمر فيكون سببًا في هزيمتهم ونكستهم ، ولذلك كانوا يكثرون التحديث به .

والأمة الإسلامية كان من أهم مقاصد الرسالة التي حملتها للعالمين ورفعت لواءها : رفع الظلم عن المظلومين وإحلال العدل ، وهذا ما أعلنه ربعي بن عامر رضي الله عنه عندما سأله قائد الفرس : « ما الذي جاء بكم ؟، قال:جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » .

ومن أجل هذا - وغيره من المقاصد - شُرع الجهاد في الإسلام ، لرفع الظلم عن الناس وإزالة الحواجز والعقبات التي بينهم وبين دين الفطرة ، ثم يُترك بعد ذلك لهم حرية الاختيار ، فلم يُشرَع الجهاد لإكراه الناس على اعتناق الإسلام كما يزعم الأفَّاكون ! .

وعندما أدرك كثير من أمم الأرض أهداف رسالة الإسلام السامية - ومن أهمها رفع الظلم عن المقهورين - فتحت أبوابها للمسلمين الفاتحين .

والأمثلة على ذلك في تاريخ الإسلام كثيرة ، منها :

• ذلك الموقف الشهير في فتح حِمْص - في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه - لما توجّه إليهم المسلمون ، فتحوا أبوابهم أمامهم ، وصالحوهم على جزية في مقابل

(١) صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٨١٦).

أن يحموهم من جنود الرومان ـ برغم أنهم نصارى مثلهم ـ ولما رأى قائد المسلمين في تلك المناطق أن الدولة الرومية قد أعدّت جيشًا أقوى من طاقته وآثر أن يرجع حتى تأتيه الأمداد ، قام بردّ ما قد تم جمعه من أهل حمص من أموال ، فكانوا يتعجبون ، وقالوا : لو كان الرومان هم الذين جمعوا منًّا تلك الأموال ما ردوا إلينا شيئًا، ودعوا للمسلمين قائلين: اذهبوا نصركم الله عليهم وردّكم إلينا .

✿ ولم تكن حمص وحدها ـ من أملاك الدولة الرومية ـ تعاني من الظلم والاستبداد الذي أهدر كرامة الإنسان إلى أقصى حدّ ! ، وإنما تحت سلطانها عشرات من البلاد ، فقد بسطت نفوذها وسلطانها على ساحلي البحر الأبيض ، وكانت تتخذ من خيرات البلاد بقرة حلوبًا ، فتنتهب خيراتها وتظلم العباد ، ولا تسعى في إصلاح شئونهم أو تقديم أي نفع لهم .

وقد كتب الأستاذ العلامة / أبو الحسن الندوي في تصوير مقدار الظلم الذي انتشر في الأرض إبّان مبعث النبي ﷺ وأطال ـ رحمه الله ـ النقل من كتب ووثائق التاريخ ، ثم قال معقبًا على هذا : « وهكذا أصبح أهل البلاد في كلتا المملكتين طبقتين متميزتين تمام التميز ، طبقة الملوك والأمراء ، ورجال البلاط الملكي وأسرهم وعشائرهم ، والمتصلون بهم والأغنياء ، فكانوا يعيشون بين الأزهار والرياحين ويتقلبون في أعطاف النعيم وينعلون أفراسهم عسجداً [١] ، ويكسون بيوتهم حريراً وسُندسًا ، وطبقة الفلاحين والصناع والتجار الصغار وأهل الحرف والأشغال ، كانوا في جهد من العيش يرزحون تحت أثقال الحياة والضرائب والإتاوات ، ويرسفون في القيود والأغلال ، ويعيشون عيش البهائم ، لا حظ لهم في الحياة إلا العمل لغيرهم والشقاء لنعيمهم ... » [٢] .

---

(١) أي كانوا يجعلون في حوافر خيولهم ذهبًا بدل الحديد !!! .

(٢) أبو الحسن الندوي ، « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » ، (ص٧٥ ، ٧٦) ط. دار الكتاب العربي ، بيروت .

وبالطبع جرت سُنَّة الله ـ تعالى ـ على تلك الأمم التي لم تنصف المظلوم برفع الظلم عنه ، قال تعالى : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (11) ﴾ [الأنبياء : ١١] .

« فإذا فشا الظلم وعدم إقامة العدل في أُمَّة من الأمم ، فقد تحققت فيها أسباب الهلاك ، وحقت عليها سُنَّة الله بالهلاك ، ووقعت عليها القاصمة ، لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد حرَّم الظلم على نفسه وجعله بين العباد محرمًا ، كما في الحديث ، فإذا اختلت الموازين وانعدمت القيم وتحكّم الأقوياء في رقاب الضعفاء وقُسِّم المجتمع إلى طبقات ، سادةً وعبيداً ، وتلاعب السادة بحدود الله وأوامره ، فقد حقت عليهم سُنَّة الله التي لا تحابي أحداً من خلقه ، ولن تجد لسُنَّة الله تبديلاً ولن تجد لسُنَّة الله تحويلاً » (١) .

وهذه السُّنَّة عن الظلمة من أُمَّة الإسلام ليست ببعيد، على حد قوله تعالى: ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : ٨٣] .

إن ما تعيشه الأمة الإسلامية الآن من مهانة وتلاحق هزائم سببه في الأغلب شيوع الظلم بكافة أنواعه ، فكيف يُقدسها الله وهي تمارس على رعاياها البطش والتسلط والقهر ، بصور لا تمارس في أمم الكفر ، وكم نسمع ونقرأ عن محاكمة رئيس أو وزير أو إقالة حكومة بأكملها في تلك الأمم ، بينما في بعض البلاد الإسلامية يُحَاسَبُ الإنسان حتى على فكره الذي يدور في رأسه ـ فقط ـ تخوفًا من أن يُحال إلى عمل ! .

نصرة المظلوم من أعظم حقوق الأخوة :

جاء في الحديث الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في**

(١) د. محمد علي الصلابي ،« صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي ، (١/ ٣٤-٣٥) ، ط. دار التوزيع والنشر الإسلامية ، القاهرة ٢٠٠٦م .

حاجته... »[١]، وفي رواية: «**...لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله ...**»[٢].

قال الشيخ ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ :

« ... لا يظلمه ولا يسلمه : لا يظلمه في ماله ولا في بدنه ، ولا في عرضه، ولا في أهله ، يعني : لا يظلمه بأي نوع من الظلم ... ولا يُسلمه لمن يظلمه فهو يدافع عنه ، ويحميه من شره ، فهو جامع بين أمرين :

الأول : أنه لا يظلمه .

الثاني : أنه لا يسلمه لمن يظلمه بل يدافع عنه .

ولهذا قال العلماء ـ رحمهم الله ـ : يجب على الإنسان أن يدافع عن أخيه في عرضه وبدنه وماله ، في عرضه : يعني إذا سمع أحداً يسبه وغتابه يجب عليه أن يدافع عنه ، وكذلك أيضًا في بدنه : إذا أراد أحد أن يعتدي على أخيك المسلم وأنت قادر على دفعه ، وجب عليك أن تدافع عنه ، وكذلك في ماله : لو أراد أحد أن يأخذ ماله ، فإنه يجب عليك أن تدافع عنه ... ويُفهم من ذلك أن الإنسان إذا ظلم أخاه فإن أخوته ناقصة ، وإذا أسلمه إلى من يظلمه فإن أخوته ناقصة ، وإذا لم يكن في حاجته فإن هذا يفوّته الخير العظيم ، وهو كون الله تعالى في حاجته »[٣].

وجاء عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**» فقال رجل : يا رسول الله ، أنصره إذا كان مظلومًا ، أرأيت إن كان ظالمًا كيف أنصره؟، قال: «**تحجزه أو تمنعه من الظلم ، فإن ذلك نصره**»[٤].

«والنصر بمعنى الدفع عن الغير،أي دفع ما يضره...سواء كان ظالمًا أو مظلومًا وهذا يعني أن الأخذ على يد الظلمة بمنعهم عن ظلم الناس نصر لهم كما أخبر

---

(١) البخاري برقم (٢٤٤٢) ومسلم برقم (٥٨) في البر والصلة .

(٢) سُنن الترمذي برقم (١٩٢٧) ومسلم برقم (٣٢) في البر والصلة ، بلفظ قريب .

(٣) شرح رياض الصالحين لابن عثيمين (١/ ٥٧٠-٥٧١) ، ط. دار السلام ، القاهرة ٢٠٠٢م .

(٤) البخاريي برقم (٢٤٤٤) ، والترمذي برقم (٢٢٥٥) .

النبي ﷺ ، وفي هذا دليل على وجوب نصرة المظلوم ، وعلى وجوب نصر الظالم على هذا الوجه الذي ذكره النبي ﷺ » [١] .

واجب العلماء في دفع الظلم عن الناس :

إن للعلماء ـ إذا أخلصوا لربهم ـ قوة لا تعادلها قوة الملك والسلطان ، لأنه كما قيل سلطان الملوك على الأبدان ، وسلطان العلماء على القلوب ، وكثيراً ما نقرأ في تاريخنا عن علماء رأوا تفشي المظالم على العباد ، فهبُّوا لدفعها عنهم ، وليس هبوب من يُحرِّض الناس على شق عصا الطاعة أو التمرد ، وإنما هبوب الناصح الذي يذكر بالله ويخوِّف به .

✿ دخل سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ على أبي جعفر المنصور وكان معروفًا بتسلطه وبطشه ، فقال : « ما قولك أنت يا أمير المؤمنين فيما أنفقت من مال الله ومال أُمَّة محمد بغير إذنهم » ؟ ، وقد قال عمر ـ يعني ابن الخطاب رضي الله عنه ـ في حجة حجها وقد أنفق ستة عشر ديناراً هو ومن معه : « ما أرانا إلا وقد أجحفنا ببيت المال » ، وقد علمت ما حدثنا به منصور بن عمار وأنت حاضر ذلك وأول كاتب كتبه في المجلس، عن إبراهيم عن الأسود عن علقمة عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « رُبَّ متخوض في مال الله ومال رسول الله فيما شاءت نفسه ... له النار غداً » ؟ ، فقال أبو عبيد الكاتب ـ أحد متزلفى الحاشية في بلاط أبي جعفر : أمير المؤمنين يُستقبل بمثل هذا ؟ ، فيجيبه سفيان بعنف : « اسكت ، فإنما أهلك فرعون هامانُ ، وهامانَ فرعون » ثم خرج وقد صدع بكلمة الحق » [٢] .

✿ وبينما أبو يوسف ـ تلميذ أبي حنيفة ـ في مجلس القضاء : اختصم إليه رجل مع الهادي ـ الخليفة العباسي في بستان ، ويرى أبو يوسف أن الحق في

---

(١) شرح رياض الصالحين ، لابن عثيمين (١ / ٥٨٢) بتصرف .

(٢) أ. سيد قطب ، « العدالة الاجتماعية » (ص ١٤٢) ط. دار الشروق ، القاهرة ١٩٨٩م .

جانب الرجل ، ولكن للخليفة شهود ، فيقول أبو يوسف : إن الخصم يطلب أن يحلف الهادي على أن شهوده صادقون ! ، فرفض الهادي اليمين ـ لأنه رأى في ذلك مهانة له ـ فرد أبو يوسف البستان على صاحبه (١) .

❁ وفي أيام الظاهر بيبرس كان الشيخ محي الدين النووي بدمشق وكان كثير الوعظ للظاهر ، يكتب إليه بما يراه إن كان بمصر ، ويصدع بكلمة الحق إن كان الظاهر بدمشق ، وقد سجل السيوطي في حسن المحاضرة طائفة من تلك المكاتبات ، وأكثرها خاص بطلب ترك بعض الضرائب المفروضة لضيق الحال ، وخشية المآل ، فيقول في إحداها : « إن أهل الشام في هذه السنة في ضيق وضعف حال ، بسبب قلة الأمطار وغلاء الأسعار ، وقلة الغلات والنبات ، وهلاك المواشي وأنتم تعلمون أنه تجب الشفقة على الرعية ونصيحتهم في مصلحته ومصلحتهم ، فإن الدين النصيحة .

وقد ردّ السلطان هذه النصيحة ردًا عنيفًا ، واستنكر على العلماء موقفهم منه ، وسكوتهم يوم كانت البلاد تحت سنابك الخيل في عهد التتار عندما استولوا على الشام، فيرد الشيخ أيضًا ردًا قويًا مؤكداً قوله ونصيحته ومبيّنًا أنها الميثاق الذي أخذه الله على العلماء ليبيّنّنه ، قال : « وأما ما ذُكر في الجواب من كوننا لم ننكر على الكفار كيف كانوا في البلاد ، فكيف يُقاس ملوك الإسلام وأهل الإيمان وأهل القرآن بطغاة الكفار ؟ ، وبأي شيء كنا نُذكّر طغاة الكفار ؟ ، وهم لا يعتقدون شيئًا من ديننا ، وأما أنا فلا يضرني التهديد ، ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان ، فإني أعتقد أن هذا واجب عليّ وعلى غيري ، وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله،وأفوض أمري إلى الله، إن الله بصير بالعباد، وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نقول الحق حيثما كنا، وألا نخاف في الله لومة لائم ، ونحن نحب السلطان في كل الأحوال ، وما ينفعه ففي آخرته ودنياه .

---

(١) **انظر** : سيد قطب « العدالة الاجتماعية في الإسلام » (ص١٤٢) ط.دار الشروق ، القاهرة ١٩٨٩م.

وقد توالت كتب الشيخ محي الدين بهذه القوة الرفيعة ، ولكن السلطان بيبرس لم ينتصح بنصيحته واستمر في جباياته لأنها الحرب التي تحتاج إلى المال والعتاد ، وجمع السلطان فتاوى العلماء في تأييد عمله ، فكتبوا بما أراد ما عدا الشيخ محي الدين فإن ذلك زاده استمساكًا برأيه وشدة فيه ، فأحضره الظاهر ليوقع على ما وقعوا،فعندئذ أجابه جوابًا عنيفًا بعد تلك الكتب الرفيقة ، قال له : « أنا أعرف أنك كنت في الرق للأسير بند قدار ، وليس معك مال، ثم منَّ الله عليك وجعلك ملكًا،وسمعت أنك عندك ألف مملوك ،كل مملوك له حياصة (١) من ذهب ، وعندك مائة جارية ، لكل جارية حق من الحُلِيّ ، فإن أنفقت ذلك كله وبقيت المماليك بالصوف بدلاً من الحوائص ، والجواري بثيابهن دون الحُلي أفتيتك بأخذ المال من الرعية » ، فغضب الظاهر بيبرس وقال : اخرج من دمشق فقال : السمع والطاعة ، فخرج إلى نوى بالشام (٢) .

والنماذج في هذا الشأن لا تحصي،وهذا يُحتِّم على العلماء أن يَسْعَوا جهدهم في دفع الظلم عن الناس،وإن كنت أعذرهم فلست بغافل عما يحدث للعلماء من ملاحقة وتضييق الظلمة عليهم،ويحسبونهم منافسين لهم على الدنيا! .

وإن لم يقدر العلماء على دفع الظلم عن الناس فلا أقلّ من أن يمتنعوا عن إعانة الظلمة على ظلمهم ، كما قال تعالى : ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود : ١١٣] .

نــداءٌ لكــل ظالــم :

إلى كل ظالم أوجّه هذا النداء فأقول :

إلى متى تغتر بقدرتك وأقدرُ وأقوى منك قد هلكوا،ولم يُعجزوا الله شيئًا !! .

(١) الحياصة : الثياب الموشاة بالذهب .
(٢) العدالة الاجتماعية (ص١٤٣ ، ١٤٤) بتصرف .

﴿ فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة ﴾ [فصلت : ١٥] ، فمهما قدر الظالم فلن يقوى على مغالبة القدرة التي لا تُغلَب ، القدرة التي وعد صاحبها - عز وجل - بأنه ينصر دعوة المظلوم ولو بعد حين .

لا تظلمن إذا ماكنت مقتدراً فالظلم عقباه يأتيك بالندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

وصدق من استخلص من توجيهات الرسول ﷺ حكمة وعظة :

« إذا دعتك قدرتك على ظلم الناس فتذكر قدرة الله عليك » .

فقد حدث أنه ﷺ رأى رجلاً من الأنصار اسمه أبو مسعود البدري يضرب غلامًا له بالسوط ، فقال : « **اعلم أبا مسعود : أن الله - تعالى - أقدر عليك منك على غلامك هذا** » (١) .

وليتك تستجيب لهذا النداء مني « فأنا أحبك » .

فإن أبا مسعود استجاب لنداء رسول الله ﷺ له وقال : « **لا أضرب مملوكًا بعده أبداً ، وهو حرٌّ لوجه الله تعالى** » ، فقال له النبي ﷺ : « **أما لو لم تفعل للفحتك النار - أو لمستّك النار** » (٢) .

وأجدر بك أن تؤدى المظالم فتردها إلى أصحابها وتطلب منهم العفو، فإنها الآن بين يديك ، وإلا فستؤديها يوم القيامة وتؤمر بأدائها ولكن لا تجد ما تؤدى به فنطرح في النار ! .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « **لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يُقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء** » (٣) .

---

(١) رواه مسلم في الإيمان برقم (٣٤) وأبو داود في الأدب برقم (٥١٥٩) .
(٢) سبق تخريجه .
(٣) مسلم برقم (٦٠) ، ك البر والصلة .

فانظر إلى كمال عدل الله ـ تعالى ـ حتى في البهائم العجم ، يقتص يوم القيامة للشاة الجلحاء « التي لا قرون لها ، وهي تشبه المظلوم من بني آدم » من الشاة القرناء « وهي تشبه الظالم من بني آدم » فكيف بعدله في مظالم البشر بعضهم لبعض !! .

لا زال صدى كلام رسول الله ﷺ يدوي « **من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أُخذ من سيئات صاحبه فحُمِل عليه** » (١) .

إنك إن استجبت لهذا النداء وسارعت في أداء الحقوق أدى الله عنك ورضى وأرضى من ظلمتهم حتى يجودوا بالصفح عنك ، وإلا جئت يوم القيامة مع المفلسين، الذين يُحشرون بمظالم ولكنهم تركوها في الدنيا، فمن أين يؤدون ؟!.

وأرجو أن يكون غشاء قلبك قد انخرق ليدخل فيه ما يلينه ولعلك تسأل فتقول : كيف أتحلل من المظالم ؟ .

« أسألُ الله بصدقٍ أن يُجري هذا السؤال على لسانك » .

يجيبك العلامة ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ فيقول :

« ظاهر الحديث أنه يجب على الإنسان أن يتحلل من ظلم أخيه حتى في العرض ، سواء علم أو لم يعلم ، وذلك أن المظالم إما أن تكون بالنفس أو بالمال أو بالعرض ، لقول النبي ﷺ : « **إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام** » .

فإن كانت بالنفس : مثل أن يكون قد جني عليه ، أو ضربه حتى جرحه ، أو قطع عضواً من أعضائه أو قتل له قتيلاً ، فإنه يتحلل منه بأن يمكن صاحب الحق من القصاص أو من بذل الذمة إذا لم يكن القصاص .

---

(١) البخاري برقم (٢٤٤٦) ك المظالم .

أما إن كانت في المال : فإنه يعطيه ماله ، إذا كان عنده مال لأحد ، فالواجب أن يعطيه صاحبه، فإن غاب عنه ولم يعرف مكانه وأيس منه فإنه يتصدق به عنه، والله سبحانه يعلم ويؤدي إلى صاحب الحق حقه ، وإن كان قد مات - أي صاحب الحق - فإنه يوصله إلى ورثته ، لأن المال بعد الموت ينتقل إلى الورثة ؛ فلابد أن يسلمه للورثة ، فإن لم يعلمهم بأن جهلهم ولم يدر عنهم تصدق به عنهم ، والله تعالى يعلمهم ويعطيهم حقهم ، وأما إذا كانت في العرض ، مثل أن يكون قد سبّ شخصاً في مجالس أو اغتابه ، فلابد أن يتحلل منه إذا كان قد علم بأنه سبَّه ، فيذهب إليه ويقول : أنا فعلت كذا ، وفعلت كذا وأنا جئت معتذراً ، فإن عذّره فهذا من نعمة الله على الجميع ، لأن الله يقول : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشورى: ٤٠]، وإن لم يعف فليعطه مالاً ، يُشبعه من المال حتى يحلله ، فإن أبى فإن الله تعالى إذا علم أن توبة الظالم توبة حقيقية فإنه سبحانه وتعالى يُرضي المظلوم يوم القيامة .

وقال بعض العلماء في مسألة العِرْض : إن كان المظلوم لا يعلم فلا حاجة أن يُعْلمه ، مثل أن يكون قد سبّه في مجلس من المجالس ، وتاب فإنه لا حاجة أن يعلمه ، ولكن يستغفر له ويدعو له ، ويثني عليه بالخير في المجالس التي كان يسبّه فيها وبذلك يتحلل منه . والمهم أن الأمر خطير ، وحقوق الناس لابد أن تُعطي لهم ، إما في الدنيا وإما في الآخرة »[١] .

وختاماً :

ليتك أخي - الظالم - تقول لنفسك : أنا بظلمي للآخرين سبب في هزيمة الأمة ، وبقية الناس يقول كل لنفسه أنا بتركي نصرة المظلومين أتسبب في ضعف وهوان الأمة ... ومن منا لم يظلم نفسه ؟ .

---

(١) شرح رياض الصالحين (١ / ٥٤١ ، ٥٤٢) .